

خطبة الجمعة بين الواقع والمثال

كلمة الدكتور. محمد أمير ناشر النعم (*)

أولا/ لماذا شرعت صلاة الجمعة؟

إنه يمكن أن نستشف غائية صلاة الجمعة من خلال نص المشروعية القرآني الإلهي، ومن خلال الظروف الحافة به:

(يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله، وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون، وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة، والله خير الرازيين) [الجمعة/ 8 - 11].

1/ أما النص بمنطوقه ومفهومه: فإنه

يشير إلى المهمة التعبدية المرجوة من صلاة الجمعة، وهذه المهمة تكتنفها وظيفتان:

أ/ وظيفة تربوية وجدانية.

ب/ وظيفة فكرية، علمية أو تعليمية.

وبحسب ما نراه فإن هاتين الوظيفتين

تندجمان في [الموعظة الحسنة]. وهنا

نتساءل عن مفهوم هذه الموعظة وعن

قيمتها وأهميتها وعن مدى تقديرنا لها...؟

في بدايات هذا القرن... وفي فترة تشكل الحركات الوطنية ضد الاستعمار قال أحد المستعمرين: «لو أننا امتلكننا منابر المسلمين، لحولنا بلادهم إلى مبادئنا في أيام قلائل».

ولقد كان يجب أن تكون هذه الكلمة -ومثيلاتها من الكلمات التحريضية - صفة قوية لواقع مؤلم، وحياة حزينة، وشعب طال انتظاره لإشراق شمس الحضارة عليه من جديد...، لا بل كان يجب أن تكون ساعة المنبه للضمير الإسلامي علّه ينتفض، ويصحو صحوة جبار أفاق من نوم عميق... ولكنها جاءت صحوة عاجز، فتح عينيه ليرى نفسه في رمال الاخطاات المتحركة.

من هنا كانت الإجابة على هذه الأسئلة -فيما يخص المنبر وكيفية استثماره- ضرورية:

1/ لماذا شرعت صلاة الجمعة؟

2/ ما هي مقومات نجاح خطبة

الجمعة؟

3/ ما هي التحديات التي تواجهها؟

(*) عن مجلة رسالة المسجد، سلطنة عمان، العدد 101، رجب 1422هـ.

إن هذه الموعظة وباختصار تمثل في عالم المسلمين الراهن مخزوناً للهوية المهددة ومقاومة شرعية لعمليات الاستلاب الفظيع التي تمرر علينا وهي المغيث بالمعرفة الإسلامية لأغلب الشرائع وحتى المثقفة منها... فما زالت أمتنا لا تقرأ، ولا زال عالمنا الإسلامي يعاني من كساد في الثقافة المطبوعة الكتابية لاعتماده على الثقافة المسموعة الشفاهية، ومن هنا تسد هذه الموعظة فراغاً كبيراً، ومساحة عظيمة لم تكن لتملأ لولاها إنما الموعظة الحسنة - صوت الدين، ونداء الإيمان، فهل نحن في غنى عنهما؟

نعم إن نفس المسلم الجائعة المثقلة بأتعاب العمل وهموم الحياة تجدد في صلاة الجمعة راحة وتعزية وقوتا، فمن أحوال معيشة يشابه صباحها مساءها ويومها أمسها ترتفع روحه إلى عالم يتحول فيه العواطف البشرية والمشاعر الإنسانية فيستعين على إصلاح نفسه، ويحرك دولا ب فكره وبالإجمال توقف فيه كل قوى الوجود، فيشعر أنه كائن حي، قرب كلمة تقع في أذنه يحتضنها للحال عقله وتختمر بها روحه أو رب عبارة يخشع لها قلبه.

فتهزه بكليته كما تهز العاصفة شجرة من جذورها لكن هذا التأثير في السامع لا يمكن إحداثه إلا إذا كانت الخطبة مشهدة حيا من مشاهد الحياة الحقيقية وكان الخطيب قادرا على فهم واقعه وتفسير هذا الواقع وتأدية تلك الحقائق بما يلائم ويناسب حالا وقالوا.

2/ وأما الظروف الحافة بالنص:

فإنها تحمل في طياتها دلالة وبعدا سياسيا فصلاة الجمعة وإن كانت عبادة مرتبطة بوجود الجماعة المسلمة أولا إلا أننا نرى أن النص لم يتنزل إلا بعد تحقق الدولة المسلمة فهي عبادة مرعية من قبل الدولة والدولة شرط لها كما هو مقرر في بعض المذاهب الفقهية.

لذا فقد ظلت صلاة الجمعة بالنسبة إلى الفقهاء رمزا للوحدة السياسية والاجتماعية للجماعة في الوطن الواحد.

ثانيا: ما هي مقومات نجاح الخطبة؟

الخطيب الناجح هو الذي يمتلك تصورا واضحا عن مقومات نجاح الخطبة ويسير وفق هذا التصور بثبات فإذا لم يمتلك التصور فمن المتعذر أن يحقق النسبة المطلوبة التي تنميه إلى أصول النجاح أو

ترقيه إلى سدة الناجحين وإن صادف مصفقا أو مهللا.

ويمكن تحديد هذه المقومات في عناصر رئيسية ثلاثة:

أولا: التصور المتكامل للمضمون المعطى.

ثانيا: اختيار الأسلوبية الملائمة لأساس الإعطاء.

ثالثا: الموهبة المرعية بالتعهد والتنمية.

1/ التصور المتكامل للمضمون المعطى:

إن المشكلة اليوم ليست في انتقاء التصور أو في غياب المضمون ولكن في غياب التصور المتكامل للمضمون والأخذ المشتت له المتناثر منه فالخطيب اليوم ينتابه -معا- داءان:

- فهو أولا في مضمونه الذي يقدم صاحب فكر إجمالي يعجز فيه عن التفصيل.

- وهو ثانيا ذو فكر تجزئي، لا يعرف ربطه بكليات المضمون، ربما لأنه لا يعرف هذه الكليات إلا أنه لو عرفها فإنه لا يوفق في ربط هذه الجزئيات بتلك الكليات.

وإنما لمسألة مهمة في طرحنا فكرنا الإسلامي اليوم فنحن لا نملك، أو لا نطرح تصورات كلية عن إسلامنا، بل نقدم ونطرح تصورات جزئية مفككة ومبعثرة.

إن النبي صلى الله عليه وسلم جعل التكامل والتناسق وعدم التنافر شرطا أساسيا للقيام بالمضمون وطرح وتقديم هذا المضمون فقال في حديث: ((لا يقوم بهذا الدين إلا من حاطه بكل جوانبه)) [رواه صاحب دلائل النبوة].

وأن تحوطه بكل جوانبه يعني:

- أن تعرفه وتتصوره أولا.

- وأن يكون تصورك له متكاملا ثانيا.

2/ اختيار الأسلوبية الملائمة لأساس الإعطاء:

إن الأسلوبية لا تقل أهمية عن المضمون ولئن رأينا خللا في تصوراتنا للمضمون إلا أن الخلل في الأسلوبية أكبر فالخطباء -كما يظهر من مناهج دراستهم - إنما يتوجهون إلى دراسة المضمون أكثر مما يتوجهون إلى دراسة الأسلوبية، فتأتي أسلوبياتهم مرتجلة من غير روية حيناً، ومقلدة مكررة أحيانا، وهي في هذه وتلك، ليس لها نظام أو محور.

سواء الأحداق، واقتنص من تخوم الروح
شوارد الأشواق... هكذا وترى الناس معه
كأضاميم من النبات الخضل يميلون حيث
يميل، فهم رهن الإشارة وطوع البنان.

ولا شك في أن شخصية النبي صلى
الله عليه وسلم كانت ملائمة لهذا الأساس
وما أظن أن أحدا من العالمين استطاع أن
يحرك في النفوس ومن النفوس ما حركه
رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، وإلا
لما كان ذاك العربي من مستمعيه يغير خط
حياته كلها، ومسار دربه كله بعد جلسة
قصيرة يستمع فيها إليه صلى الله عليه
وسلم.

ب/ الترغيب والترهيب:

هذه الأسلوبية [الترغيب والترهيب]
ما زالت مشوشة غير مبنية على أساس أو
مقعدة وفق قواعد وأصول فخطبنا لا
يدرون إلى الآن أيهما الأصل؟

متى نرهب؟ ومتى نرغب؟ وهل
اليأس من الترغيب هو بداية الترهب أم
العكس؟

إن الواقع يخبرنا بأن الخطباء اليوم
يقدمون مواعظهم بالترهيب لا بالترغيب
فما السبب؟

إذن لا بد للخطيب من تصور سليم
للأسلوبية أو طرق الإعطاء بالاعتماد على
المناهج التربوية التي تراعي المصلين وحالهم
الراهنه، وهنا يمكن أن نتكلم عن أسس
متعددة من إثارة للعواطف أو ترغيب
وترهيب أو اغتنام للفرص أو تكرار
حسن بيان أو تنويع وتغيير، على أن
اعتماد أساس من هذه الأسس إنما يتحدد
بناء على ما يلي:

1/ مضمون الخطبة.

2/ واقع المصلين وحالهم.

3/ شخصية الخطيب.

تطبيقاً:

أ/ إثارة العواطف:

ينبغي للخطيب أن ينظر إلى مضمون
الخطبة فإن كان يحتمل هذه الإثارة فعل
وإلا لم يفعل حتى لا يعود على نفسه
بالنقض.

أما شخصية الخطيب فلها الدور
الأكبر في هذا الأساس فرب خطيب إن
عمد لـ:

[إثارة العواطف] أضحك فحرك في
النفوس مباهجها، أو أبكى فهيّج منها
لواعجها، وتراه إن أراد حرك من شعور
النفس أدق الأعلاق، واستترل الدموع من

معينة حرفاً بحرف وكلمة بكلمة فالنبي صلى الله عليه وسلم ظلّ يكرر مضمونا واحدا ثلاث عشرة سنة في مكة: ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا)) [تخريج الحديث] فهل كان طوال هذه السنوات يردد هذه الجملة فحسب؟

الجواب البديهي: لا!

بقي أن نقول إن للتكرار آفة واحدة فقط وهي الملل، ويتنفي الملل بالتنوع والغنى، كما قلنا.

3/ الموهبة المرعية بالتعهد والتنمية:

الموهبة كالنبته فإن كان الإنسان قد حصل البذرة فلا أقل من أن يسقيها ويغذيها وسوف تنمو شيئا فشيئا.

ورغم ذلك فالخطابة عمل في مكنة الإنسان ومستطاعه إن تدرب على الإلقاء، وثابر على النطق السليم الفصيح، وجال في اللغة علوما وآدابا لأنها الأداة والوسيلة الأظهر، وتعود على الارتجال.

ثالثا/ ما هي التحديات التي تواجه

خطبة الجمعة؟

1/ خطبة الجمعة بين التبرير

والتفكير:

إن خطبة الجمعة اليوم معمل إنتاج ثقافة قد اغتيل فيها العقل لأنها حولت

وقع في خلد الكثيرين أن التقوى إنما تكون في إعطاء الصورة المتشددة القاهرة الكابته، فهذه هي العزيمة عندهم. أما الترغيب فهو اليسر والسهولة والسماحة، وهو رخصة ليس إلا، وشتان بين الرخصة والعزيمة. لذا ولكي ينفي الخطيب عن نفسه وهم أنه غير تقي يُيدي -لا شعوريا- تشددا فيما يطرح ليثبت شرعيته وليؤسس مقبوليته بين الناس.

ج - اغتنام الفرص:

فالخطيب الناجح هو الذي يتصيد الفرص ولا يفوتها ليصدر أفكاره وتصوراتهِ ليثبتها في خلد مستمعيهِ ويجذرها في نفوسهم، إن الفرصة لا بد أن تكون:

1- مناسبة للمضمون المراد طرحه.

2- وأن تكون على مستوى المصلين

لا أعلى ولا أدنى.

د- التكرار وحسن البيان:

وهو أحد الأسس التي يقدم الخطيب من خلالها المضمون، ووظيفة هذا الأسلوب التوضيح وزيادة التأكيد فإن أداها فنعما هو.

وتنبع قيمة التكرار من اختلاف أشكاله وتنوعه فليس التكرار تردادا لجملة

وظيفته من التفكير إلى التبرير، والتبرير عملية تحميل واهمة لوجه الواقع المشوه دون التوجه لقطع أسبابه ومواده وفي الحاصل تكريس هذا التشوه وتثبيته.

هذه الثقافة افتقدت مقومات التفكير ووصمت بالتبرير لأنها اتسمت بسمتين:

أ/ إنها لا تملك تحليلاً أو نقداً.

ب/ إنها لا تملك استراتيجية.

إنها تجند النص ووقائع التاريخ لإسداد الشرعية على [الفكر الشخص - العمل] في وقت ما، أو لسلبها عنهم في وقت آخر، إن على الخطيب اليوم لكي يؤدي مهمته ورسالته أن يمتلك مقومات التحليل وأدوات النقد، ليعري الواقع وينفض ما تراكم عليه من غبار، بل ليظهر منابع التشوه فيه حتى إذا ما حددها وعددها انبرى مع زملائه العلماء لوضع استراتيجية عليا تكفل بأن تعيد لوجه الواقع رونقه وجماله واتساقه.

مهمة الخطيب الداعية في النهاية أن يوقع النص ويترله التريله اللاتقة بالزمان والمكان والإنسان.

2/ هموم المجتمع هموم الخطيب:

إن الإنسان اليوم يتطلع إلى المبدأ البديل الذي يخلف الأنظمة الفكرية

الوضعية السائدة، هذه الأنظمة التي لم تستطع أن تجيب عن أكثر القضايا إلحاحاً وجوهرية بالنسبة إلى الإنسان من جهة أولى والتي لم توفق في إيجاد النموذج المقنع الذي يورث الفكرة والمبدأ، من جهة أخرى.

إن الفكر الإسلامي -نقول هذا دون أن نكون متجاوزين للواقع- قد أصبح اليوم موضع توظيف دائم لآمال التغيير في بلداننا الإسلامية على الأقل.

غير أن القائمين على هذا الفكر لم ينجحوا -سوى قلة- حتى هذه اللحظة إلا في تخيب هذه الآمال، نعم هذا ما ينطبق على الخطباء تماماً فهم اليوم لا يستنتقون هموم الناس ولا ينطلقون منها وإنما ينطلقون من همومهم وحاجاتهم، ليجعلوها هما عاماً وحاجات عامة.

إن الموضوعات المسيطرة على خطب الجمعة هي أمور ثانوية بالنسبة إلى حياتنا بينما المشاكل الحقيقية قضية عن هذه الموضوعات والعناوين.

إننا نتساءل كيف يمكن لنا أن نناقش في خطبة الجمعة أموراً جوهرية، وكيف نجعلها مفتاح إجابة للقضايا المعاصرة؟ ونحن غير منفتحين على علوم العصر ولا

مختلف، وما إن يخرج المسلم من المسجد إلى معترك الحياة حتى يصطدم بعالم آخر وحياة أخرى، وكأن لا علاقة للإسلام بها، فيقع ضحية التناقض بين هذين العالمين.

وإذا أراد الخطباء اليوم أن يكونوا على مستوى الواقع فلا بد لهم من أن يجددوا موقف الشريعة فيما يخص كثيرا من القضايا الراهنة كقضايا التنمية والنهضة ومقاومة التبعية والاستهلاك وقضايا التعليم والمؤسسات التعليمية ومستقبل الثقافة والمثقفين وتحديات الحداثة ... الخ.

ترى هل نحن طوباويون إذ نطالب بذلك؟ أرجو ألا نكون كذلك.

مطلعين على مشاكل الساعة قد ارتبطنا بالماضي وعشنا ظلاله ونسينا الحاضر وتجاهلنا آفاقه، وكان جل ثقافتنا ومعارفنا من كتب العهود المتأخرة التي قتلت فيها روح الخلق والإبداع والعمل عند الإنسان.

نعم إن التحديات التي تواجه الدعوة -وأخص منهم الخطباء- يجب أن نستحثهم على الاستعجال في استدراك عدم تكيفهم مع العلم الحديث والحياة الواقعية، العلم فاللغة والمصطلحات التي يستعملونها لا تنتمي إلى عصرنا، والموضوعات التي تناقش لا تلامس الحياة اليومية المعيشة، مما يخلق هوة وفراغا بين الخطيب وبين المتلقي إذ لكل منهما عالم